الفصل الثالث
عُمـــر الجَـــارم
و«نعمة القرآن»

● يعد الشاعر الطبيب الدكتور عمر الجارم معلما بارزا من معالم الطب والشعر فى عصرنا الحاضر، ولا يقل نبوغه فى الشعر عن نبوغة فى الطب، وليس ثمة تناقض بين المجالين، فكلاهما يطبب جراح الإنسان الجسدانية والروحانية ويأخذ بيد الإنسان صوب عالم السعادة ودنيا الجمال والحق والقوة والحرية.

● ويدعم ذلك التزاوج الدافئ بين الطب والشعر تخصص شاعرنا الطبيب الأستاذ فى مجال الأمراض النفسية والعصبية حيث ابتعث إلى انجلترا عام ١٩٤٨م لدراسة الأمراض النفسية والعصبية وعاد شاعرنا الطبيب من بعثته عام ١٩٥١م لينشئ قسم الأمراض العصبية والنفسية بكلية الطب فى جامعة الاسكندرية ثغر مصر الباسم العريق، ولذا يعد فى مجال الطب رائداً فى تخصصه وعمدة من عمد الطب النفسى والعصبى فى المنطقة العربية والإسلامية، وتعتبر أبحاثه ومحاضراته ومؤلفاته فى مجال تخصصه مراجع يلوذ بها الدارسون والباحثون ومنارات يهتدى بها الحائرون.

● لأجل ذلك استحق شاعرنا الرائد – عن جدارة واقتدار – وصف شاعر الأطباء وطبيب الشعراء ولم يكن غريبا أن ينظم الشعراء الكبار عذب أشعارهم تغنيا بموهبة الدكتور عمر الجارم وحكمته ومهارته فى طب النفوس والأجساد فضلا عن عبقريته فى مجال الإبداع وامتلاك ناصية البيان، وإذا زرت عيادة الدكتور الجارم فى محطة الرمل بثغر مصر الجميل للقائه والسلام عليه – وليس للعلاج لا قدر الله – تطالعك أشعار كثيرة فى الإشادة بعبقريته فى الطب والشعر

للشعراء الرواد من أمثال محمود عبد الحى (شاعر نشيد « الله أكبر ») وعبد العليم القبانى، ومحمد برهام، وحسن شهاب ... وغيرهم من الأسماء اللامعة لجيل الرواد فى المنطقة العربية بعامة والقطر المصرى على الخصوص وثغر الإسكندرية على خصوص الخصوص.

والقصيدة التى نحن بصددها سماها شاعرنا الدكتور عمر الجارم « نعمة القرآن » تتضمن إشادة بكتاب (نعمة القرآن) الذى أهدته مؤلفته الأديبة الداعية الإسلامية المباركة السيدة (نعمت صدقى) إلى الشاعر وهى أم الدكتور أمين رضا أستاذ العظام بكلية الطب فى جامعة الإسكندرية، وهو زميل الشاعر فى كلية الطب، وقد أعجب الشاعر أيما إعجاب بكتاب السيدة الأستاذة نعمت صدقى وهزه ما فى الكتاب من فضل وتوجيه وإقناع وشمول وعمق وتفصيل وحكمة حكيمة وأفكار جديدة، الأمر الذى جعل كتابها (نعمة القرآن) فى مجاله سفرا (يغنى المطالع عن عديد مراجع) وانفعل الشاعر لتلك المكرمة فأنشأ هذه القصيدة يثنى على الكتاب ويعدد مزاياه ويصف مجلس السيدة المؤلفة الذى كانت تعقده فى بيتها الفخم فى القاهرة شتاء وفى الإسكندرية صيفا حيث كانت تلقى فى مجلسها دروس العلم والدين التى يؤمها فضليات النساء فى مجتمعى القاهرة والإسكندرية، ويختم القصيدة بأبيات فى مدح المؤلفة الكريمة والثناء على أدبها ونتاجها وصلاحها، ومطلع القصيدة:

أقسمت أنك (نعمة) الأوطان لما أتيت (بنعمة القرآن)
هذا الكتاب أراه معجزة النهى أتراه تنزيلا من الفرقان

● وشاعرنا الدكتور عمر الجارم ينتمى إلى مدرسة الشعر الأصيل، شعر البيان الجميل والموهبة الأصيلة والصورة المبتكرة والعاطفة الصادقة، ويعد شعره امتدادا لشعر عمه على الجارم « شاعر العروبة » بخاصة ومدرسة أمير الشعر والشعراء أحمد شوقى بعامة، والشعر عند شاعرنا يعنى (الإلهام) وتفسير ذلك كما يرى أن الإلهام هو تلك « اللحظة الخاطفة والبارقة السريعة تهز بروعتها نفس

المبدع، كما تهز نفس (المتذوق) ومن ثم تتولد نشوة جمالية فورية تغمر الوجدان»، ولقد قيل الكثير فى تفسير العملية الإبداعية وفعل الإنشاء والخلق لدى الفنان وبخاصة الشاعر فيما عرف فى درس النقد الأدبى بنظرية الوحى والإلهام، ويأتى فى مقدمة الأسماء اللامعة التى أدلت بدلوها فى بحث هذه المسألة أستاذنا الناقد الكبير الدكتور حلمى مرزوق الأستاذ بجامعتى الإسكندرية والبحرين حيث عرض فى محاضراته الأكاديمية والعامة ،وعبر أبحاثه المنشورة لتفسير عملية الإلهام وتتبعها عند القدماء والمحدثين متسلحا بالجديد فى الدرس النفسى والفلسفى فضلا عن ثقافته الواسعة فى التراث والفكر الأوربى، ويميل شاعرنا الدكتور عمر الجارم إلى تفسير الإلهام والإبداع عند الشاعر الموهوب بعاملين اثنين أولهما الوراثة وثانيهما البيئة وإن كان الجارم لا يصادر المفاهيم الأخرى لتفسير (الوحى والإلهام) من مثل القول إن «القدرة على الإبداع كامنة فى كل شخص، وقابله للنمو والظهور إذا صادفت فى البيئة ما يساعدها على النبت والنشوء» (الشعر الواضح) – ديوان الدكتور عمر عبد المحسن الجارم – بَيْدَ أن شاعرنا الطبيب يجنح – بطبيعة الحال – إلى التفسير الأول الذى يفسر عملية الإبداع الشعرى بعاملى الوراثة والبيئة لأن ذلك يفسر موهبته تمام التفسير وينطبق عليه فى وضوح لا لبس فيه، وقد ساق الشاعر فى التدليل على وجهته تلك بيتا من شعر عمه على الجارم يفسر به الموهبة الشعرية فيقول:

الشعر من صنع السماء فسمه وحيا – إذا ما شئت – أو إلهاما

● نشأ شاعرنا وترعرع فى بيت أدب ودين وعلم وعرف عن عائلته (عائلة الجارم) الذكاء والنبوغ فى علوم الشرع واللغة وتذوق الفصحى لغة القرآن وإنشاء أبدع الأشعار فى ديوانها، وفى مقدمة ديوانه «الشعر الواضح» يلح فى تفسير (الموهبة الشعرية) على عاملَي الوراثة والبيئة، فيتحدث أولا عن عامل الوراثة من جهة الأب (الجارم) وكذلك من جهة الأم التى يجرى فيها دم (الجارم) أيضا

فجد الشاعر الثالث لأبيه هو الشيخ ابراهيم الجارم مفتى الشافعية والنحوى اللغوى الماهر – بتعبير الشاعر – عاصر الحملة الفرنسية وورد ذكره فى كتب التاريخ وهو الذى رفض تزويج إحدى كريماته للجنرال مينو الذى قاد الحملة الفرنسية بعد مقتل قائدها الثانى (كليبر) على يد البطل سليمان الحلبى، وكان مينو قد أعلن إسلامه وأراد أن يتزوج سيدة مصرية شريفة الأصل، أما جد شاعرنا الثانى لأبيه فكان الشيخ عبد الفتاح الجارم مفتى رشيد وقد عرف فى عصره بطول الباع والبراعة فى فنون العلم حتى كان يلقب بالعلم أو الشيخ الفصيح، كما كان شاعرا يتعاطى الزجل ويجيده، أما الجد الأول لشاعرنا فهو الشيخ محمد صالح الجارم الذى كان له ديوان شعر رقيق نظمه فى صباه، أما أبو الشاعر فهو الشيخ عبد المحسن الجارم الذى أغرم بالشعر – كما يقول شاعرنا – غراما شديدا وإن لم يكن شاعرا وكان راوية لشعر أمير الشعراء يحفظ شعر شوقى، ويبدع فى إلقائه حتى أنه أمَّ كرمة ابن هانئ فى القاهرة والتقى أمير الشعراء وألقى بين يديه إحدى روائعه التى كانت قد نشرت قبل الزيارة بقليل ويحكى شاعرنا عن تلك الزيارة فيقول عن أبيه وكان راوية لأمير الشعراء أحمد شوقى بك، ما أن تنشر له قصيدة حتى يحفظها وسافر يوما من رشيد إلى القاهرة وزار شوقى بك فى كرمة ابن هانئ وذلك مع زوج ابنته – شقيقتى – الأستاذ على فهمى الرشيدى الذى كان يعطى دروسا خصوصية لابني شوقى: على وحسين، وكانت قد نشرت قبل تلك الزيارة بأيام قصيدة طويلة للأمير، فبدأ أبى الزيارة بإطرائها ثم أنشدها من ذاكرته بإلقاء رائع لمضيفه، مما جعله يتمايل طربا، وإذا بنشوته تزداد حينما كشف له أبى عن المعانى السياسية الخفية التى رمز لها فى قصيدته، وهنا أراد شوقى أن يعبر عن سروره وتقديره فينهض إلى مكتبته وتناول ديوان شعره وأهداه إلى أبي وقد كتب بخطه للأستاذ الجليل عبد المحسن الجارم ولا زلت أحتفظ بهذه الهدية القيمة فى مكتبي [(الشعر الواضح) – ديوان الدكتور عمر عبد المحسن الجارم (ص ٧)].

أما عامل البيئة فتعكسه البيئة التى نشأ فيها شاعرنا الطبيب حيث تفتحت عيناه على جو يفيض بنغم الشعر العربى الجميل وفى منزله يترنم والده بالشعر وأشقاؤه يتعاطون الشعر والزجل فهذا هو الأخ الأكبر فتحى الجارم (زجال كل اجتماع وخطيب كل حفل) - بتعبير الجارم - والملقب (بلبل رشيد) وشقيقه الثانى المستشار أحمد الجارم كان شاعرا وزجالا وكذلك الحال مع شقيقتى الشاعر سعاد وليلى، ولكن يبقى تأثر الشاعر بعمه (شاعر العروبة) على الجارم كبيرا فقد كان ينصت طربا إلى عمه يلقى شعره بصوته الندى وأدائه الشجى وترنمه العذب. عبر الأثير وبخاصة فى حفل افتتاح الإذاعة المصرية فى الحادى والثلاثين من مايوم عام ١٩٣٤م حيث يقول فى مطلع قصيدته التى ألقاها فى الحفل المذكور:

يا سارى الشعر يطوى الجو فى آن ... ويملأ الأفق تغريدا بألحانى

يختال فى بردة الفصحى وتسعده ... بدائع الحسن من آيات عدنان

وقد استمع شاعر العربية الكبير للفتى الجارمى اليافع يلقى عليه آخر قصيدة نظمها حين زيارة الجارمى الكبير لبلدته رشيد أثناء عطلة الصيف فى آخر زيارة له لرشيد قبل وفاته وكان شاعرنا الفتى قد نظم قصيدته فى مدح أستاذه الدكتور على حسن بك أستاذ علم التغذية فى كلية الطب / جامعة الإسكندرية ومطلع القصيدة:

أعددت من وحى الشعور قصيدى ... وجمعت من روض الوفاء ورودى

ونثرتها عفو المراد فيالها ... جاءت بنظم رائع ونضيد!!

والشعر إن يك للشعور مترجما ... يسمو لأوج فى البيان بعيد

وكانت القصيدة كما يحكى شاعرنا تزيد على الثلاثين بيتا، وكان فتانا يلقيها بإلقاء عذب جميل متأثرا بعمه فى فن الإلقاء وكان الجارمي الكبير يتابع إلقاء الفتى فى إنصات واهتمام وإعجاب مستوقفا الشاعر أحيانا ليعيد شطرا من

بيته أو تعبيرا أطربه صائحا بالفتى - كما يحكى شاعرنا - « أعد يا أبا حفص »، ولما انتهى فتانا الطبيب سمع عمه الجارمى الكبير يتمتم بكلمات هامسة كأنه يحدث نفسه مرددا مرتين: « الشعر باق فينا بإذن الله ». وكان لذلك أعظم الأثر فى مسيرة شاعرنا وتألقه ونبوغه وإجادته فن القصيد فيما بعد.

نظم شاعرنا الطبيب عمر الجارم قصائد تترى عبر مراحل سيرة حياته أبان دراسته فى كلية الطب، وقد ملك زمام القصيدة منذ عهد الدراسة الجامعية واشتهر بين زملائه بذلك ثم توالت تجاربه وقصائده حين أرسل إلى انجلترا للتخصص فى طب النفس والأعصاب ثم واكبت قصائده كفاح المصريين فى مواجهة الاحتلال وقضايا العرب الكبرى فى مواجهته، وترجم شعره عن حياته الخاصة وأحداث الجامعة المختلفة وواكب حركة اليقظة الأدبية وشارك بوقته وماله فى رعاية الفنون والآداب والثقافة بثغر الإسكندرية وترأس هيئة الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية لنحو خمسة عشر عاما واستضاف نشاطها فى عيادته الطبية وظل الحال كذلك من (١٩٧١م - ١٩٨٦م).

ولما عزم الشاعر على جمع قصائده فى ديوان اختار له اسم (الشعر الواضح) تأثرا بنهج عمه فى مؤلفاته (النحو الواضح) و(البلاغة الواضحة)، وكذلك قصد فى وضع أسماء لمؤلفاته العلمية بالإنجليزية (الأمراض العصبية الواضحة) و(الأمراض النفسية الواضحة).

* * *

الجارم والتجديد الشعرى المتطرف

● لقد جاءت أشعار الجارم معبرة عنه وعن أحداث أمته ووطنه وتجارب حياته فى مختلف المواقف، ولا يطلب من الشاعر المجيد أكثر من ذلك، وقد حافظ الشاعر على بناء القصيدة وفق أصول إيقاع القصيد العربى وضَمَّن شعره تجاربه وجديد أفكاره ومعانيه وطريف صوره وأخليته كما اتسع قالب الشعر العربى لتجارب الشعراء العرب الناظمين بلغة الضاد خلال ستة عشر قرنا من خلال مجال واسع من النغم العذب فى ثوب فضفاض من بحور الشعر العربى لم تضق قط بتجارب الشعراء العرب فى مختلف العصور. يقول الشاعر السكندرى الكبير محجوب موسى:

« ... وكل بحر من الأُبحر الستة عشر يؤدى إلى قنوات هى تنويعات على الأبحر « كل بحر له تنويعاته الخاصة » وتصل القنوات أو التنويعات إلى سبعة وستين تشكيلا نغميا وتصل أضرب الأبحر إلى ذات العدد، أما الأعاريض فتصل إلى ستة وثلاثين عروضا وهذا إثراء نغمى لم يحصل عليه شعر أية لغة » (دليل إلى علم العروض ص ٤٢ – مديرية الثقافة بالإسكندرية) ولقد رأينا الشعراء المجددين المعتدلين يدورون فى هذا المجال الفسيح الفضفاض فيأتون بأبدع الأشعار وأعذب الألحان، ولم يرفض الجارم كما لم يرفض جمهور المبدعين والمتأدبين كل تجديد يضفى على القصيدة مزيدا من الحيوية والتطور لتستوعب الجديد فى حياتنا فذاعت قصائد مدرسة الديوان وجماعة أبولو وجاءت أشعار المهاجر عذبة جميلة كما رأينا فى شعر مطران وإيليا وغيرهما، ورأينا عددا كبيرا من الشعراء الحقيقيين ينظمون قصائدهم فى أشكال كثيرة ويعتمدون الصورة الكلية والبناء العضوى للقصيدة ومن هؤلاء عمر أبو ريشة وغازى القصيبى ونازك الملائكة وعبد العليم القبانى وعبد الرحمن العشماوى وفاروق جويدة وأبو القاسم الشابى وفاروق شوشة ... وإن كان شعر التفعيلة

أنسب للمسرح الشعرى بما يحمل من زخم الصراع وحيوية الحوار واعتماده على التصوير الكلى غالبا والرمز المقبول فى أغلب الأحوال، ولا يرفض المعتدلون من تيار الوسط التجديد المقبول والأمر كما قال الشاعر فاروق جويدة: «القضية شعر أو لا شعر». (جريدة «الأيام» البحرينية - العدد (١٧٨٧) - الاثنين ٢٤ -١ - ١٩٩٤ م).

● والأمر ليس تقديسا للقديم فى ذاته وليس قبولا للجديد دون تمحيص. وإنما يتقدم شاعرنا ويشاركه موقفه القاعدة العريضة من الأدباء والمتأدبين على أدعياء الأدب وشراذمه المشبوهة التى تُردد مصطلحات التجديد والحداثة وتجاوز القديم وتبنى الجديد المبتكر ... كلمات حق يراد بها باطل، ويعمد تلكم النفر للإتيان بكلمات أشبه بالطلاسم والإلغاز يمجها ذوق الأدباء والمتأدبين يسمونها شعرا، ووراء كثير من هؤلاء دوافع ليست فنية فى نشاطهم لقناعاتهم، وإنما ينطلقون فى نشاطهم ذلك من دوافع سياسية وشعوبية، فهم يريدون أن يهدموا كل شئ وكل الثوابت: عمود الشعر - قواعد الشريعة - أصول الدين - الدلالات اللغوية والثوابت، ليبنوا من جديد، وقد تكون ماهرا فى الهدم وهذا ما نلاحظه - ولكن البناء صعب، ولو وافقناهم وهدمنا وبنينا من جديد وجاء آخرون وهدموا وبنوا من جديد فما الحصيلة؟ هل تكون غير الضياع ومسخ شخصيته الأمة وتدميرها والإتيان على ثقافتها وحضارتها؟! أتراهم ينطلقون من قول بودلير «الشاعر عليه أن يفكك الواقع ويحطمه ويخلق منه عالما جديدا يختلف كل الاختلاف عن العالم الواقعى المنظم»؟! ومعذرة للشاعر فولتير حين يقول: «مسكينة أيتها الحرية، كم من الجرائم ترتكب باسمك»، يقول شاعرنا فى رثاء العقاد:

صنا القديم على رسوخ بيانه لما أتى الشعر الجديد هراء

● فرق كبير بين التجديد والتخريب، وما أوسع البون بين البناء والهدم، وما أبعد الشقة بين الجمال والقبح يقول شاعرنا عمر الجارم: «... حاشا أن

يعرف الجدة التى نراها فيمن يكتبون كلاما يسمونه الشعر الجديد ... فما هو بالشعر بعد أن حطم قيثارته! وأى جدة فيه وأغلبه لا تكاد تفهم منه شيئا؟!» وفى تعليقه على قصيدة «وردة من دم المتنبى» للشاعر اليمنى عبد الله البردونى يقول الشاعر السكندرى أحمد فضل شبلول: «فإذا كانت بعض قصائد الشعر المعاصر (التفعيلى على وجه الخصوص) تنعت بأنها غامضة ومبهمة والرؤية فيها غير واضحة وأن الرمز الذى يحاول أن يستخدمه الشاعر يتحول على يديه إلى شئ لا يفهمه إلا هو وإنه لكى تفهم بعض الأعمال المعاصرة يلزم الأمر أن تجلس مع الشاعر نفسه وتحاوره وتستخلص منه ما يود أن يقوله فى عمله الشعرى ... فإن مثل هذه القصيدة لا تحتاج إلى هذا كله ويكفى أن يقرأها المتلقى العادى مرة أو مرتين ليستمتع بها ويتعامل معها ويفسر مغزاها ويفهم معناها». (أصوات من الشعر المعاصر - الجزء الأول ص ١١٩، ص ١٢٩ - الطبعة الأولى).

● وعلى أية حال فقد أفلست كنانة تلك التوجُّهات الشعرية برغم الأصوات العالية ومهارتها فى الظهور الملح فى الدوريات والصحف والمجلات وتحالفهم فى كثير من المواقع مع خصوم مبادئهم فهم يضعون أيديهم فى أيدى أعداء الحرية والإنسانية فى الإنسان ليحافظوا على ظهورهم الدائم وإطلالاتهم على قارئ الصحف البرئ من خلال صورهم المنشورة التى تفيض بالبشر وتبعث البهجة والتفاؤل فى النفوس الحزينة وينعى حالتهم تلك أحد المتحمسين للجديد الثورى وهو الشاعر محمد إبراهيم أبو سنة فيقول: «يخوض الشاعر الآن للأسف معركة خاسرة ضد نفسه من خلال هذه المنازلات العقيمة حول ما يسمى بالحساسية الجديدة أو صراع الأجيال أو هذا الإنكار المتبادل بين الأجيال وبعضها البعض، كل هذا دفع الشعر إلى الزاوية المعتمة بعيدا عن روح الإنسان وقلبه» [جريدة «أخبار الأدب» المصرية العدد (٢٥) ص ١٩ - ٢٠/١٠/١٩٩٤].

أما الناقد الدكتور سعد ظلام فينبه إلى أخطار هذه التوجيهات الأدبية

المرفوضة فيقول: «الحداثة أدب اللاوعى بل أدب الحمقى والمرضى والمحمومين وهو أدب ضد الجميع وضد الأوطان والثقافات وضد الإنسانية، ومن هنا كان الواجب مقاومته لأنه يدمر الإنسان ويضلله ويجعله يدمر ثقافته ووطنه وأمته. فما الشئ الذى يمكن الحفاظ عليه بعد تدمير ذلك كله ؟؟!!» [ملحق الأربعاء الصحيفة «المدينة» السعودية ص ٤ الأربعاء – ١٨ من جمادى الآخرة سنة ١٤١٤ هـ].

* * *